الدرس الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا أله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وعلى أصحابه أجمعين.

قال شيخ الإسلام الإمام الأوَّاب محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله تعالى وقدَّس روحه قال في كتابه كشف الشبهات:

ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النارِ، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم عليه السلام : أما إليك فلا؛ قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركًا لم يعرضها على إبراهيم. فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه؛ فإنَه كما قال الله فيه : ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم:٥]، فلو أذِن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولَها من الأرض والجبال ويلقيها في المشرقِ أو المغرب لفعل، ولو أمره أن يضع إبراهيم عليه السلام في مكانٍ بعيدٍ عنهم لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل ، وهذا كرجلٍ غنيٍّ له مالٌ كثيرٌ يرى رجلاً محتاجًا فيعرض عليه أن يقرضه، أو أن يهب له شيئًا يقضي به حاجته؛ فيأبى ذلك الرجل المحتاجَ أن يأخذ، ويصبر حتى أن يأتيه الله برزق لا منَّة فيه لأحدٍ ؛ فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك ؛ لو كانوا يفقهون.

****

ثم ذكر الشيخ رحمه الله هذه الشبهة ، وبها ختم ما أورده من شبهات يثيرها من يتعلق بغير الله تبارك وتعالى ويصرف العبادة لغيره جلَّ وعز.

قال رحمه الله تعالى: «**ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النارِ، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجةٌ؟ فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا ، قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركًا لم يعرضها على إبراهيم**» ؛ هذا استدلالٌ من هؤلاء أو تشبيهٌ من هؤلاء بتقرير الشرك ودعاء غير الله والالتجاء بغيره سبحانه وتعالى بقصةٍ تتعلق بإمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه السلام ؛ الذي جعله الله تبارك وتعالى للناس إمامًا، وذكر الله جلَّ وعز في القرآن من قصصه في نصرة التوحيد وإبطال الشرك شيئًا كثيرًا، وكل ذلكم لم يُقْبِلْ عليه القوم ولم يلتفتوا إليه ولم يحفلوا به، وأخذوا يتبعون المتشابه ؛ وهذه طريقة أهل الزيغ والضلال يتبعون المتشابه ويتركون المحكم البيِّن ، وإلا ففي قصص إبراهيم مما ذكره الله عزَّ وجل في القرآن وجاء في سنة النبي صلى الله عليه وسلم من النصرة للتوحيد وإبطال الشرك والرد على من يتعلق بغير الله تبارك وتعالى ما فيه كفاية وغُنيَة، وما فيه

أيضًا الوضوح والشفاء في هذا الباب العظيم، وكل ذلكم عند القوم يُترك ولا يُلتفت إليه! ثم يتبعون مثل هذه الأمور التي يلبِّسون من خلالها على الناس!

قال: «**ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النارِ، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجةٌ؟**» استدلالٌ بهذه القصة من هذا الموضع ؛ اعتراض جبريل لإبراهيم الخليل في الهواء، وقوله له: "ألك حاجة؟" ، قالوا مستدلين على ذلك بجواز الاستغاثة بغير الله : "لو كانت الاستغاثة بجبريل شركًا لم يعرضها على إبراهيم" ، فرجعوا هنا بهذا التقرير الباطل إلى عبادة الملائكة واللجوء إليهم واتخاذهم إلهة مع الله ، هذا مُفاد هذا التقرير: أنَّ الملائكة يجوز الالتجاء إليهم والاستغاثة بهم والاستنجاد بهم ، وهذا اتخاذٌ لهم آلهة مع الله تبارك وتعالى، قالوا: لو كانت الاستغاثة بجبريل شركًا لم يعرضها على إبراهيم عليه السلام .

ثم شرع رحمه الله في الجواب على هذه الشبهة قال: «**فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى**» ، ونحن عرفنا في الجواب على الشبهة الأولى أنَّ الاستغاثة أو الطلب هناك طلبٌ من حيٍّ حاضر قادر ؛ حي أمامهم يخاطبونه، وحاضر عندهم ، وأيضًا قادرٌ على هذا الأمر الذي طلبوه منه.

قال: «**فهي من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمرٍ يقدر عليه**» فاجتمعت الأمور الثلاثة كونه حيًّا وحاضرًا وأيضًا قادرًا لما أعطاه الله سبحانه وتعالى من القوة والشدة، ولهذا قال المصنف رحمه الله: « **جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه؛ فإنَّه كما قال الله فيه: ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾** [النجم:٥]» أعطاه الله سبحانه وتعالى قوةً وشدةً.

ولهذا يقول الشيخ مستدلاً بالآية: «**فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولَها من الأرض والجبال ويلقيها في المشرقِ أو المغرب لفعل**»؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى أعطاه القدرة على فعل مثل هذا الأمر .

«**ولو أمره أن يضع إبراهيم عليه السلام في مكان بعيد** -وهو أيسر من الأول بعيدًا عنهم- **لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل**»؛ فجبريل شديد القوى ، وعرض على إبراهيم الخليل أشياء هي في مقدوره ؛ ولهذا نَظَّر المصنف رحمه الله تعالى لهذا بمثال قال: «**وهذا كرجلٍ غنيٍّ له مالٌ كثيرٌ يرى رجلاً محتاجًا**» يعني: يرى رجلاً فقيرًا محتاجًا إلي المال «**فيعرِض عليه أن يقرضه**» فيقول له: تريد أن أعطيك مالاً، تريد أن أساعدك بالمال، يعرض عليه أن يقرضه أو أن يهب له شيئًا يقضي به حاجته ، «**فيأبي ذلك الرجل أن يأخذ، ويصبر حتى يأتيه الله برزق لا منَّةَ فيه لأحد**»؛ فهل مثل هذا يُقال أنه فيه دليل على الاستغاثة؟! رجل غني يعرض على رجل فقير مالاً؛ فيعتذر عن قبوله يريد أن يأتيه رزقٌ من الله سبحانه وتعالى لا منَّةَ لأحدٍ فيه.

يقول الشيخ رحمه الله: «**فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون!!**» ؛ أين هذا من استغاثة العبادة والشرك التي يفعلها أهل الشرك عندما يستنجدون بغير الله من المقبورين وغيرهم، يسألونهم كشف الكربات وإزالة الهموم وتيسير الأمور، ويسألونهم الولد والرزق وغير ذلك مما لا يُسأل إلا من الله تبارك وتعالى؟!

هذا جواب الشيخ رحمه الله على فرض ثبوت هذه القصة؛ وإلا فهي غير ثابتة . وأُعيد ما بدأت به أنَّ القوم تركوا من قصة إبراهيم أو قصص إبراهيم عليه السلام في الكتاب والسنة ما فيه تقرير التوحيد وتثبيته وتدعيمه ونصرته، كل ذلكم تركوه ولم يحفلوا به وأخذوا يتتبعون الأخبار الواهيات وما لا يثبت ويتعلقون به ؛ لنصرة ما هم عليه من ضلال وباطل.

قال رحمه الله تعالى:

ولنختم الكلام إن شاء الله تعالى بمسألة عظيمة مهمة جدًا تُفهم مما تقدم، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها، ولكثرة الغلط فيها؛ فنقول: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيءٌ من هذا لم يكن الرجل مسلمًا. فإن عَرَف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما. وهذا يغلط فيه كثير من الناسِ يقولون: هذا حقٌ ونحن نفهم هذا ونشهدُ أنه الحق ، ولكن لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهلِ بلدنا إلا من وافَقَهم، وغير ذلك من الأعذارِ، ولم يدرِ المسكين أن غالب أئمة الكفرِ يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيءٍ من الأعذارِ؛ كما قال تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة:٩]، وغيرِ ذلك من الآيات كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]. فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهرًا وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبِه فهو منافق، وهو شر من الكافرِ الخالصِ؛ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. وهذه المسألة مسألة كبيرة طويلة تُبيّنُ لك إذا تأملتها في ألسنة الناسِ ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقصِ دنيا أو جاهٍ أو مدارةٍ، وترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا فإذا سألته عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه.

****

ثم ختم رحمه الله تعالى بهذه الخاتمة الجامعة لتثبيت ما مضى وتقريره؛ قال: «**ولنختم الكلام إن شاء الله بمسألة عظيمة مهمة جدًا تُفهم مما تقدم، ولكن نفرِد لها الكلام لعظم شأنها، ولكثرة الغلط فيها**» ؛ سيتحدث الشيخ رحمه الله عن أصلٍ مفيدٍ وأساسٍ نافع يتعلق بالتوحيد الذي هو أساس السعادة وسبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، فسيتحدث عن أصلٍ نافعٍ في التوحيد عظيم الشأن، وفي الوقت نفسه يكثر فيه الغلط عند الناس .

قال: «**فنقول: لا خلاف أنَّ التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل**» ؛ والتوحيد: أصلٌ يدل على الإفراد، توحيد الله عزَّ وجل: هو إفراده بحقوقه سبحانه على عباده وخصائصه جل وعلا التي لا تليق إلا به، ولا تكون إلا له سبحانه وتعالى لا شريك له في شيء من ذلك ؛ فالتوحيد هو إفراد الله بحقوقه سبحانه وخصائصه، ونبذ الشرك والضلال والبراءة منه.

قال: «**لا خلاف أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل**» ؛ فالقلب يوحِّد ، واللسان يوحد ، والجوارح توحد، توحد بالأعمال، التوحيد لابد منه بهذه الثلاث.

قال: «**فإن اختل شيءٌ من هذا لم يكن الرجل مسلمًا**» كما سيأتي توضيح ذلك عند المصنف رحمه الله تعالى.

فهذه فائدة عظيمة في التوحيد؛ أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب اعتقادًا وإقرارًا واعترافًا بوحدانية الله عزَّ وجل وإيمانًا بذلك دون شكٍ أو ريب، واللسان: نطقًا بالتوحيد تلفظًا به وإعلانًا للشهادة به، وبالعمل: بأن يجعل أعماله كلها لله خالصة ولا يجعل لأحدٍ فيها شيئًا.

ثم بيَّن الشيخ رحمه الله أمثلة لحصول اختلال في هذه الموازين أو الأصول التي يقوم عليها التوحيد، ضرب شيئًا من الأمثلة على ذلك ، قال: «**فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر**» ؛ معرفة التوحيد توحيد؛ لكن ترك العمل به كفرٌ ناقض لهذه المعرفة مبطلٌ لها.

«**فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفرعون وإبليس وأمثالهما**» وهذا يسميه أهل العلم كفر الإيباء والاستكبار؛ يكفر عن معرفة، عرف ولم يقبل؛ ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] ، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفسهم﴾ [النمل: ١٤] ، وفي إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] ، فهذا كفرٌ عن معرفة، وهو يسمى كفر جحود وإيباء أو استكبار.

قال: «**فإن عرف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفرعون وإبليس وأمثالهما ، وهذا يغلط فيه كثير من الناسِ** » ثم يُبيِّن وجه الغلط في هذا الباب.

قال: «**يقولون: هذا حقٌ ونحن نفهم هذا، ونشهدُ أنه الحق ولكن**» ثم يذكر لهم أعذارًا يوردونها يمتنعون بسببها من الإقبال على التوحيد والعمل به، يقولون نحن نعرف أن التوحيد حق بعبارة ذكرها عنهم رحمه الله في بعض مصنفاته ورسائله قال: «يقولون التوحيد زين والكفر شين»، لكن عندما يأتون إلى جانب العمل يمتنعون من العمل لأعذار يُوردونها ، لأجلها لا يعملون بالتوحيد الذي قالوا عنه أنه زين وأنَّ ضده وهو الشرك بالله عزَّ وجل شين.

قال في حكاية قولهم: يقولون «**ولكن لا نقدر أن نفعله**»؛ لماذا لا تقدرون على فعله، ما الذي يمنع؟

قال: «**لا نقدر أن نفعله ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم**» هذا من الأعذار! لا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم هذا من الأعذار التي يوردها بعضهم مع معرفته بالتوحيد، وأحيانًا يحصل أنَّ بعض الناس يأتي إلى مدارس التوحيد التي تقرره ويمكث فيها بعض السنوات ويفهم التوحيد ويقف على دلائله وحُججه وبراهينه، وإذا رجع إلى بلده رجع إليهم كما كان! موافقًا لهم على كل ما هم عليه من ضلال وخرافة، ويسايرهم في أعمالهم ويحاكيهم في شركياتهم ، وقد حفظ من الدلائل والحجج ودرَسها وفهِمها وعرفها وتبين له صحتها؛ لكن مجاراة الأهل والعشيرة والمجتمع الذي عاش فيه صار حاجزًا عنده يمنعه من العمل بالتوحيد. يقول: «**لا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم**» بمعنى أنه إذا لم يكن على ما هم عليهم من الشرك والضلال يعادونه وينابذونه ويسفِّهونه إلى غير ذلك ، فهو لا يريد ذلك ، فيمضي إليهم موافقًا لهم.

قال: «**وغير ذلك من الأعذار**» ؛ أعذار هؤلاء في هذا الباب كثيرة ؛ مثل أيضًا: اتباع الآباء والأجداد "هذه طريقتنا منذ نشأنا عليها في البلاد، هذه عقيدة الآباء والأجداد" .

قال: «**ولم يدرِ المسكين أن غالب أئمة الكفرِ، يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشيءٍ من الأعذارِ**» يعني عرف الحق لكن تركه إما مثلاً مجاراةً لعشيرةٍ وقرابة، وإما حفظًا لجاهٍ ورئاسة وزعامة، وإما أيضًا استبقاء لمالٍ وثراء ونحو ذلك؛ فغالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار ؛ يعني يُبدون أعذارًا لأجلها لا يُقبِلونَ على هذا الذي عرفوه.

«**كما قال الله تعالى: ﴿اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾** [التوبة: ٩] »، يعني استعاضوا عنها بثمن قليل، يعني من أجل شيءٍ من المال وتحصيل شيءٍ من المال آثروا ذلك على آيات الله عزَّ وجل وحججه سبحانه وتعالى وبيِّناته؛ **كما قال الله تعالى: ﴿اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾** [التوبة:٩]، **وغير ذلك من الآيات كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾** [البقرة: ١٤٦].

إذًا قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ هذه الآية تفيد أنهم عرفوا الحق وآيات الله سبحانه وتعالى وحججه؛ لكنهم آثروا عليها دنيًا زائلة ومالٌ فانٍ. وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فيه أنَّ علماء اليهود كانوا على معرفة بأن النبي صلى الله عليه وسلم حق وأنه مرسلٌ من ربه، وأن ما يدعو إليه حق، لكنهم تركوا ما دعاهم إليه حفظًا للرئاسة وإبقاءً للزعامة والمكانة والجاه . هذا مثال للإخلال بأمور التوحيد التي هي القول والاعتقاد والعمل بالقلب واللسان والعمل.

مثال آخر؛ قال: «**إن عمل بالتوحيد عملاً ظاهرًا وهو لا يفهمه، أو لا يعتقده بقلبِه**» يعني وُجِدَ من العمل الظاهر لكن لا يفهم التوحيد ولا يعرفه، أو لا يعتقد التوحيد بقلبه ؛ فهو منافق، وهو شرٌ من الكافر الخالص؛ لأن المنافق يظهر إيمانًا ويبطن خلاف ذلك.

قال: «**وهو شرٌ من الكافر الخالص؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾** [النساء:١٤٥] »، فجعل جلَّ وعلا رتبتهم في النار أسفل رتبة وأحط رتبه؛ هذه فيه دلالة لما ذكره المصنف أنهم شر من الكافر الخالص.

قال: «**وهذه المسألة مسألة كبيرة**» قوله «هذه المسألة» أي مسألة أنَّ التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل .

يقول: «**هذه مسألة كبيرة طويلة تبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس**» يعني إذا اختبرت التوحيد وحقيقته في ألسنة الناس تبين لك هذه المسألة وعظم شأنها، وأيضًا تبين لك الإخلال الكبير الذي يقع فيه كثير من الناس في التوحيد بأعذارٍ يبدونها يعتذرون بها عن قبول التوحيد والإقبال عليه.

قال: «**إذا تأملتها في ألسنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به**»؛ لماذا يعرف الحق ويترك العمل به؟!

«**لخوف نقص دنيا**» يعني مثل أن يكون له مكانة ومنزلة فيخاف أن تنقص هذه المكانة وهذه المنزلة عند الناس إذا قبل التوحيد وأعلن ذلك.

«**أو جاهٍ**» ؛ الجاه: هو المكانة والمنزلة ، ونقص الدنيا: أي المال والثراء.

«**أو مداراة**» ومقصود الشيخ رحمه الله بالمدارة: أي المداهنة، مداهنة أهل الباطل.

قال: « **وترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا، فإذا سألته عن ما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه**» فباطنه لا يُطَّلع عليه لكن إذا سألته عما يعتقد تجد أنه لا يعرف التوحيد ، لو قيل له: ما التوحيد؟ ما الذي ينبغي أن يعتقده الإنسان في التوحيد؟ بعضهم ربما يقول لك: التوحيد أن تعتقد أنه لا خالق غير الله، أو لا غني عما سواه إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، هذه حقيقة التوحيد عنده وهذا حدُّه! فتجد بعضهم إذا تأملت في حاله وجدته لا يعرف التوحيد.

قال: «**ترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا**» من أين عُرِفَ أنه باطنًا لا يعمل بالتوحيد؟ عندما يُسأل ما الذي يجب أن يعتقده الإنسان في التوحيد ويستقر في باطن المسلم؟ يقول مثل هذه الإجابات التي تدل وتُنم عن عدم فهم منه بالتوحيد.

قال رحمه الله تعالى :

ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله، أولاهما: ما تقدم من قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦] **. فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع رسول الله صلى الله عليه كفروا بسبب كلمةٍ قالوها على وجه المزحِ واللعب، تبين أن الذي يتكلم بالكفرِ أو يعمل به خوفًا من نقصِ مالٍ أو جاهٍ**

أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها. والآية الثانية: قولُهُ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦]**. فلم يعذرِ الله من هؤلاء إلا من أكره مع كونِ قلبه مطمئنًا بالإيمان، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواءً فعله خوفًا أو مداراةً أو مشحةً بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله، أو فعله على وجه المزح، أو لغير ذلك من الأغراض إلا المُكره، والآية تدل على هذا من جهتين: الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ فلم يستثن الله إلا المُكرَه، ومعلوم أن الإنسان لا يُكرَه إلا على العملِ أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يُكره أحدٌ عليها. والثانية: قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾، فصرح أنَّ هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهلِ أو البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظًا من حظوظ الدنيا فآثره على الدينِ. والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، آمين.**

****

ثم قال رحمه الله تعالى: «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله عزَّ وجل» يعني بعد أن ذكر رحمه الله أنَّ هذه المسألة وهي مسألة أنَّ التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، وأنها مسألة كبيرة ، وأنك إذا تأملت في حال الناس للنظر في تحقيقهم لهذه المسألة –أي تحقيقهم للتوحيد بالقلب واللسان والعمل ، إذا تأملت هل هم حققوا هذه الأمور الثلاثة ؟ – تجد أنَّ منهم من وُجِدَ منه بعض دون بعض ، فلا تكون مجتمعة، والتوحيد لا يكون من الشخص إلا إذا اجتمعت هذه الأمور ؛ يعني: كونهم نطقوا بالتوحيد بألسنتهم واعتقدوه في باطنهم وعملوا به في جوارحهم، إذا وجدت هذه الثلاثة صح توحيد الإنسان ، وإذا اختل شيء منها لم يستقم توحيده.

يقول: «**ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله**» أي: يتضح لك بفهمها الأمر وتستبين لك هذه المسألة العظيمة.

قال: «أولاهما» أي: أولى الآيتين «**ما تقدم من قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾**» ؛ تأمل في الكفر الذي حصل هنا ما نوعه؟ وبما يتعلق من الأمور الثلاثة التي أشار إليها الشيخ رحمه الله؛ قال: التوحيد بالقلب واللسان والعمل.

قال: «**فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسول صلى الله عليه وسلم كفروا بسبب كلمة قالوها**»، الآن هؤلاء كانوا مع النبي عليه الصلاة والسلام؛ قال رحمه الله من الصحابة في غزو، والله جل وعلا ذكر أنَّ كفرهم بعد إيمان؛ قال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ذكر أن كفرهم بعد إيمان؛ فهم كانوا على

الإيمان وعلى التوحيد ولكن بهذه الكلمة كفروا، كفروا بكلمة قالوها، فهذه توضح لك أنَّ التوحيد كما أنه بالاعتقاد فهو أيضًا بالقول والعمل.

قال: «**فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسولِ صلى الله عليه كفروا بسبب كلمةٍ قالوها على وجه المزحِ واللعب، تبين**» أي: لك من هذا «**أنَّ الذي يتكلم بالكفرِ**» أي: يقول بلسانه كلمة الكفر «**أو يعمل به**» كأن يستغيث بغير الله أو نحو ذلك من الشرك «**خوفًا من نقصِ مال، أو جاه** -أي: خوفًا من نقص جاه- **أو مداراة لأحد أعظم** -أي: كفرًا- **ممن تكلم بكلمة يمزح بها**» ؛ إذا كان الذين قالوا "ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أجبن عند اللقاء وأكذب ألسُنًا وأرغب بطونًا" إلى آخر ما قالوه؛ ثم اعتذروا عن هذه المقالة أنهم إنما أرادوا قطع عناء الطريق، وأنهم إنما أرادوا المزح واللعب ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ؛ يعني: لسنا جادين عندما قلنا هذه الكلمة، وهم يعتذرون، لماذا؟ لأنهم أدركوا أن هذه الكلمة أخرجتهم من دائرة الإسلام، ونزل فيهم هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ؛ فجاءوا معتذرين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكان لا يلتفت إليهم ولا يزيد على قراءة هذه الآية: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ . فهذه الآية تبين كما قال الشيخ أنَّ الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفًا من نقص مال أو جاه أو مداراة لأحد أعظم -أي: كفرًا- ممن تكلم بكلمة كهذه على وجه المزاح واللعب . فهذه الآية تبيّن لك هذا المقام العظيم.

والآية الثانية قال: «**قول الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾**» تنبه لهذين الأمرين الواردين بعد الاستثناء، قال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ هذا أمر، الثاني: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ ؛ هؤلاء استثناهم الله.

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ يعني من قال كفرًا أو فعل كفرًا فإنه لا يُعذر إلا إذا كانت هذه حاله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ . إذًا من قال كفرًا أو فعل كفرًا خوفًا من ذهاب رئاسة ما شأنه؟ كذلك من قال كفرًا أو فعل كفرًا خوفًا من ذهاب جاه أو ذهاب مال أو مذمة الناس فأخذ يداهن ويجاري؛ هذا ما شأنه عندما يقول الكفر أو يقر الكفر؟ مثل أن يكون في مجلس معهم ويقررون هذه الشركيات ويلتفتون إليه فيقول: صحيح ، وهو في قرارة نفسه يدرك أنه باطلٌ وشركٌ بالله؛ فيقول: صحيح مدارةً أو مداهنة لهم ومجاراة لهم؛ فلننتبه للأمرين المذكورين بعد الإستثناء؛ قال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ .

قال الشيخ في تقرير الاستدلال بهذه الآية الكريمة: «**فلم يعذرِ الله من هؤلاء إلا من أكره مع كونِ قلبه مطمئنًا بالإيمان**»؛ فإذًا العذر في هذه الآية، يعني من حصل منه الكفر لا يُعذر إلا بشرطين: الشرط الأول: أن يكون

مُكرهًا. والشرط الثاني: أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان؛ أي ساكنًا لم يتغير باقٍ على الإيمان ثابتًا عليه ؛ فالله جل وعلا لم يستثن من هؤلاء أي الذين قالوا الكفر أو فعلوا الكفر إلا من أُكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان.

والإكراه: كون الشخص وصل إلى حد يخشى على نفسه القتل أو على ولده؛ ففي مثل هذه الحال يجوز للإنسان أن ينطق الكفر أو يفعل الكفر، إذا خاف على نفسه وصل إلى درجة يخشى على نفسه أن يُقتل أو على بعض ولده أن يُقتل فقال كلمة الكفر أو فعل الكفر؛ لكن قلبه في باطنه ثابت على الإيمان . ولهذا الإكراه على القول والعمل، أما الاعتقاد الذي يكون في الباطن هذا لا يكون فيه إكراه، الإكراه ؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾؛ يعني: من أُكره على الكفر وخشي على نفسه أو على ولده القتل إن لم يقل الكفر أو لم يفعله؛ فيجوز له أن يقول الكفر وأن يفعل الكفر ولا يخرج بذلك من الإيمان، إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان.

قال الشيخ رحمه الله: «**وأما غير هذا**» أي: غير المكره المطمئن قلبه بالإيمان «**فقد كفر بعد إيمانه**» .

«**سواءً فعله خوفًا**»يعني: خوفًا من ملامة الناس، أو مذمة الناس، أو احتقار الناس.

«**أو مداراة**»يعني مجاملة للناس ومداهنةً لهم .

«**أو مشحةً بوطن أو أهل أو عشيرة أو مال**» يعني آثر هذه الأشياء على توحيده لله سبحانه وتعالى وإخلاصه الدين له .

«**أو فعله على وجه المزاح**» يعني: يقول الكفر أو يفعل الكفر ويقول: إنما فعلته مزحًا ولعبًا .

«**أو لغير ذلك من الأغراض**» ، قال الشيخ: «**إلا المُكره**»؛ كما دلت على ذلك الآية، وكما هو واضح في الاستثناء الذي في الآية: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾؛ لك أن تقول: من كفر بالله بعد إيمانه قولاً أو فعلاً مازحًا أو خائفًا أو مُداهنًا أو حفظًا لجاهٍ أو مكانةٍ أو مشحة بوطنٍ أو أهلٍ أو غير ذلك من الأعذار ؛ كل هؤلاء يكفرون إلا من أُكره مثل ما قال الشيخ إلا المكره، ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

قال: «**والآية تدل على هذا من جهتين**» ؛ قوله "على هذا" الإشارة إلى أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل.

«**فالآية**» أي قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ «**تدل على هذا**» أي: على أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل «**من جهتين**»:

«**الأولى: قوله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ فلم يستثن الله إلا المُكره، ومعلوم أن الإنسان لا يُكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها**» ؛ سؤال ونجيب عليه من الآية: هل يكفي في أن يكون الشخص موحدًا أن يعتقد التوحيد في باطنه وفي سره وفي قلبه دون القول والعمل؟ هل يكفي في التوحيد أن يعتقد

التوحيد في باطنه وسره لكن لا يعمل بالتوحيد ولا يقول التوحيد، هل هذا كافٍ؟ ليس كافٍ؛ الدليل الآية ؛ قال: «لم يستثن الله إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العملِ أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها» ، وتقرير الاستدلال : أنه لو كان يكفي في التوحيد مجرد الشيء الذي يكون في القلب، المعرفة القلبية أو الإقرار الذي يكون في القلب أو الاعتراف الذي يكون في القلب، لو كان هذا يكفي فما معنى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾؟! لأن الذي في القلب لا أحد يُكره عليه؛ فالإكراه إنما يكون على القول والعمل.

فإذًا هذا وجه في دلالة الآية على أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل ؛ فلا يكفي في التوحيد مجرد ما يكون في القلب فقط .

الجهة الثانية في دلالة الآية على ذلك: **قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فصرح جل وعز أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهلِ أو البغض للدين أو محبة الكفر** ، ليس سبب الكفر والعذاب المترتب على الكفر لم يكن سببه الاعتقاد، من أين عرفنا أنه لم يكن سببه الاعتقاد؟ لأن العقوبة عُلِّقت على شيء لا علاقة للقلب فيه، وهو القول والعمل ؛ لأن هذا الذي يكون عليه الإكراه، أما الذي في القلب لا إكراه عليه. «**فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهلِ أو البغض للدين أو محبة الكفر**»، وهذه أشياء في القلب، والآية ليس الكلام فيها عما في القلب، وإنما الكلام فيها لوجود الكفر وحصول المكفِّر الذي عليه العذاب، كلها تتعلق بالقول واللسان ، أما الاعتقاد وبغض الدين ومحبة الكفر هذه أشياء في القلب، والتكفير الذي في الآية ليس منصبًا على الشيء الذي في القلب؛ وإنما هو منصبٌ على القول والعمل.

قال: «**وإنما سببه أن له في ذلك حظًا من حظوظ الدنيا فآثره على الدينِ**» هذا مأخوذ من قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ والباء سببية؛ يعني بسبب إيثارهم للحياة الدنيا على الآخرة ، أي: على الجنة وثواب الله في الدار الآخرة .

«**فصرح أن هذا الكفر والعذاب الذي حُكِمَ على أهله بالكفر لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر؛ وإنما سببه أنه له في ذلك حظًا من حظوظ الدنيا**»؛ أي: فآثر هذا الحظ الدنيوي على الحظ الأخروي الذي أعده الله لعباده الموحدين وأولياءه المؤمنين.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: فالإنسان الذي يُلجئه من يلجئه إلى أن يصدر من الكفر له حالات:

- ❖ أحدها: أن يمتنع ويصبر عليها؛ فهذه أفضل الحالات، وهذه الحالة مثل حالة الذي ذُكِرَ في الحديث: ((دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب)) ، وفيه أن أحدهما قيل له: قرِّب؛ قال: لم أكن لأقرِّبَ لأحد غير الله؛ فقُتِلَ فدخل الجنة؛ فصبر على ذلك. «أن يمتنع ويصبر عليها، هذه أفضل الحالات».
- ❖ الثانية: أن ينطق بلسانه مع اعتقاد جنانه الإيمان ؛ فهذا جائز له تخفيفًا ورحمة ، قد قال بعض أهل العلم ومنهم الشيخ الشنقيطي رحمه الله في كتابه أضواء البيان وأطال في تقرير ذلك: أنَّ هذا تخفيف لأمة محمد عليه الصلاة

والسلام، واستدل لذلك ببعض الأدلة تجدونها في كتابه؛ منها: الحديث ((رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)) وذكر بعض الدلائل، فهذا التخفيف لأمة محمد عليه الصلاة والسلام في قولٍ لبعض أهل العلم، أن ينطق بلسانه مع اعتقاد جنانه الإيمان؛ جنانه: أي قلبه، مع اعتقاد جنانه الإيمان، فهذا جائز له.

إذًا الحالة الأولى أفضل؛ يعني: أن يصبر فلا ينطق الكفر ولا يفعل الكفر إلى أن تفارق روحه جسده صبرًا على التوحيد هذا أفضل. فلو قال الكفر بسبب الإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان هذا جائز ولا يكون بذلك قد دخل في الكفر.

❖ الحالة الثالثة: أن يُكرَّه فيجيب ولا يطمئن قلبه بالإيمان؛ فهذا غير معذور وكافر . أن يُكرَّه فيجيب يعني: يجيب بنطق الكفر لكن في الوقت نفسه لا يكون قلبه مطمئن بالإيمان؛ يعني: يكون عنده شيء من أو يدخله شيء من الارتياب في دينه وفي توحيده وفي عقيدته وفي إيمانه بالله سبحانه وتعالى ؛ فهذا غير معذور وكافر.

❖ الحالة الرابعة: أن يُطلب منه ولا يُلجأ –يعني دون أن يصل لحد الإكراه ولكن يوافق بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان– فهذا كافر؛ لأنه لم يُكرَه على الكفر؛ يُقال له: اسجد للصنم، يُقال له: سب الدين مثلاً، يُقال له من الأمور الكفرية فيبادر دون أن يصل إلى حد الإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان هذا يكفر ؛ لأن الله استثنى من عدم الكفر من كان مُكرهًا وقلبه مطمئنٌ بالإيمان.

❖ الحالة الخامسة: أن يُذكر له ولا يصل إلى حد الإكراه فيوافق بقلبه ولسانه؛ فهذا أيضًا كافر.

ثم ختم الإمام رحمه الله تعالى الكتاب بقوله: «**والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين**».

يمكن مزيدًا للاستفادة في هذا الباب أن يُطالع ويُراجع بعض الكتب المفيدة في هذا الموضوع، والمنطلقة من هذا التأسيس والتقعيد والتقرير الذي قرره الشيخ رحمه الله تعالى، في كتاب «تيسير العزيز الحميد» لحفيد الشيخ: عبد الله بن سليمان بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله في شرحه لباب «من الشرك أن يستغيث بغير الله أو أن يدعو غيره» في آخر شرحه لهذا الباب أشار إلى كتاب كشف الشبهات، ونوَّه بالجهد الذي بذله الشيخ رحمه الله في هذا الكتاب المبارك، ثم أضاف رحمه الله ذِكر بعض الشبهات وأجاب عنها بنفس طريقة الشيخ رحمه الله في كشف الشبهات. فذكر هناك إضافة بعض الشبهات –وهي ثلاث شبهات يوردها هؤلاء– وأجاب عنها إجابة مفصلة وافية نافعة، يمكن أن تُراجع في كتاب «تيسير العزيز الحميد».

أيضًا يمكن أن يُراجع في الباب كتب أئمة الدعوة التي ردوا فيها على هؤلاء من خصوم الدعوة المنافحين عن الشرك والتعلق بغير الله عز وجل، ومن هذه الكتب على سبيل الإشارة فقط : كتاب «تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس» للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، وكتاب: «القول الفصل النفيس في الرد على المفتري بن جرجيس» للشيخ عبد الرحمن بن حسن صاحب فتح المجيد وصاحب قرة عيون الموحدين، وأيضًا كتاب: «كشف الشبهتين» للشيخ ابن سحمان، وكتاب: «النبذة الشريفة في الرد على القبوريين» للشيخ حمد بن ناصر آل معمر، وكتاب: «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للسهسواني.

وغيرها من الكتب النافعة المفيدة في هذا الباب. وكثير من هذه الكتب التي أشرت إليها وغيرها من كتب أئمة الدعوة رحمهم الله مشتملة على مادة نافعة جدًا في كشف الشبهات، ومطالعة هذه الكتب والمرور عليها يفيد طالب العلم، خاصة عندما يكون في مجتمع يُبتلى فيه بمثل هذه الشبهات التي تُثار ، فمن خلال هذه الكتب يتمكن بإذن الله عز وجل من معرفة الطرائق القويمة والسبل السديدة لرد مثل هذه الشبهات. وأذكر في وقت قديم فعلت أنا وبعض طلبة العلم واستفدنا من ذلك، استقرئنا هذه الكتب التي ذكرت لكم كلها كتابًا كتابًا وصنعنا لها فهرسة، يعني نذكر الشبهة ونذكر أجوبتها، نذكر الشبهة كرأس قلم ؛ ادعائهم كذا قولهم كذا استدلالهم بحديث كذا ، ثم نحيل على الردود في هذه الكتب بعد قراءتها وتأملها في هذه الكتب؛ فالشاهد أن مراجعة هذه الكتب والاستفادة منها ومطالعتها نافع لطالب العلم.

نحمد الله الكريم حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه أن يسر لنا هذا الخير ، وأكرمنا بدراسة هذا الكتاب والوقوف على مضامينه الطيبة وتقريراته المفيدة. نسأل الله عز وجل أن يغفر للإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ولتلاميذه أنصار هذه الدعوة المباركة؛ التوحيد وإخلاص العبادة لله، ونصرة سنة النبي الكريم، ونبذ الشرك والبدع والخرافة والضلال. نحمد الله عز وجل على نعمه الكثيرة ومننه العديدة، نحمده على نعمة الإسلام ونعمة الإيمان ونعمة السنة، نحمده تبارك وتعالى على كل نعمة أنعم بها علينا في قديم أو حديث، أو خاصة أو عامة، أو سر أو علانية. ونسأله جل وعلا أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يثبتنا على دينه، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيما. ونسأله جل وعلا أن يعيذنا من الضلال، وأن يسلك بنا سبيل الهداية والرشاد، وأن يسددنا في أقوالنا وأعمالنا، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.